

أثر العمارة في إبراز الشخصية القومية

للدكتور أحمد فكرى

أمين دار الآثار العربية

لكل أمة من الأمم طبيعة تميزها في هذا العالم ، وقد أرادت الطبيعة ألا يتشابه بلدان في تكوينيها ، فالسواحل والأنهار والأودية والجبال تتباين وتكسب كل بلد مظهرا لا نظير له وتخلق منه جسدا فريدا من نوعه .

والعمارة رداء هذا الجسد . وكأن الانسان لم يتنع بما ميزت به الطبيعة بلاده فأراد أن يميزها بردائها المعارى ، إلا أن الطبيعة أولا هي التي أوحت اليه بذلك بما قدمته له من مواد العمارة . فالجوانيت في مصر أكسب عمارتها مظهرا غير مظهر الرخام في بلاد الإغريق ، والآجر في بلاد ايران .

واقترنت الطبيعة بالعقائد في تكوين هذا الرداء المعارى ، فالمباني في بلاد الإغريق تتصل بأنظمة معابدها ، وفي البلاد المسيحية تقتبس من الكائس عناصرها ، وفي البلاد الاسلامية تأخذ عن المساجد عقودها وزخارفها وهي في هذه تختلف اختلافا جوهريا عنها في أولئك .

وإلى الطبيعة والعقائد اجتمع التفكير والخيال ، واجتمعت أسباب الحياة الاجتماعية والسياسية ففرضت على الانسان في موطنه أشكال عمارته وأوحت اليه معانيها .

وهكذا ، فآثار العمارة في برتغال مثلا تتشع بمظهر يميزها عن آثار العمارة في جارتها أسبانيا ، وهي في هولندا تقوم على غير المباني التي تقوم عليها في جارتها بلجيكا . وكان لها في بلاد الرومان أنظمة غير التي كانت لها في بلاد الإغريق ، ولئن تجدد في التاريخ أمة كانت تعبر بشخصيتها فلم تترك في عمارتها أثرا بارزا لهذا الاعتزاز .

وهكذا تختلف عمارة الشعوب مظهرا وعناصر وأنظمة بقدر اختلاف هذه الشعوب طبيعة وتفكيرها وعقيدة وخيالا ، وبقدر اختلاف حياتها السياسية والاجتماعية .

فاذا كانت عناصر الأمة ومشخصاتها الطبيعية والتاريخية تتحد جميعا في العمل على تكوين عمارتها وتتفق على أن تجعل من هذه العماره رداء مميّزا لها فإن هذه العماره بدورها تحتل من هذه الشخصيات مركز الدعامة والزعامه .

فالتاريخ يمدنا عن نهضة الشعوب، فترى العماره أترا خالدًا ومرآة ناطقة بهذه النهضة . وهي من بين الوثائق التاريخية أكثرها سهولا وإيضاحا . ألا تتجلى عظمة قداماء المصريين أولا في عمارتهم ؟ أليست أهرامهم أنعم عنوان لمجدهم الغابر ؟ أليست معابدهم الفسيحة الهائلة أزهى صورة لعصورهم الفاخرة ؟ أما نيل مصر وصحراؤها وزرعها وعلومها وآدابها وأما ملوك مصر وحروبهم وفتوحاتهم فكل هذا لا شك عظيم خالد في التاريخ يتحدث الناس عنه في كل زمان ومكان، ولكن هل بلغ كل هذا من إعجاب العالم ما بلغته عماره قداماء المصريين ؟ وهل كان كل هذا ليقى خالدًا لو أن آثار العماره اندثرت من مصر أو لم يتخذ منها صرحا ودعامه يقوم عليهما ؟

ولكل أمة لغتها تشخص قوميتها . ويذكر العالم للإغريق لغتهم وما أخرجته من آداب وعلوم وفلسفة مما يدين العالم به لهم منذ أكثر من ألفي عام . ولكن آثار عمارتهم نفسها لغة عالمية يفهمها الناس جميعا، لانه هي بلا شك أوضح بيانا وأكثر بلاغة من اللغة الاغريقية نفسها .

ولكل أمة من الشخصيات القومية غير لغتها عقائدها وأزياءها وعاداتها وطباعتها وفنونها ونظمها السياسية وطرق تفكيرها . وإذا تجوّل الانسان في عاصمة من العواصم شعر بآثار كل هذه الشخصيات ماثلة أمامه . ولكن لمباني هذه العاصمة وعمارته وقما أكبر على النفس وأبقى للذكرى .

فأين نحن من كل هذا ؟ لبلادنا في التاريخ مرحلتان عظيمتان، ومدينتان من أسمى المدينيات تركنا من آثار العماره أشدها تعبيرا لمبلغ سموها وأقواها تشخيصا لقوميتنا المزدوجة . وسواء أراد البعض منا أن يتصل حديثنا بالمرحلة الأولى ، وأن تمتد قوميتنا الى تاريخنا القديم أو أن تنقطع هذه الصلة بالفتح الإسلامي فلا تقوم قوميتنا إلا على أساس ما اجتمع لها منذ بدء هذه المرحلة الثانية . عناصر اللغة والعقيدة والتفكير والنشرب وأسباب الحياة الاجتماعية والسياسية سواء أ كانت الغلبة لهذا الرأي أو لذلك فأين مظاهره القومية الحديثة ؟ أين قاهرة اليوم من قاهرة الفاطميين ؟ أين دور حكومتنا وقصورنا من دور الحكم حينئذ والخلافة ؟ الواقع أن الواحد منا يشعر حين يتجول في عواصم بلادنا بانعدام قوميتنا أو باتصالها بغير العناصر التي

كوتتها، أين ما يذكروا في فناء الجامعة بما كان لأجدادنا في العلوم والآداب والفنون، وفي قيام المدنيات القديمة والحديثة ؟ وأين ما يذكرونا أمام دور محاكمنا بأسس التشريع والفقهاء التي تحدد علاقات بعضنا ببعض؟ وهل حرصنا على أن تكون أنظمة مساكننا وواجهاتها صدى للطبيعة التي تحيط بنا وللعقائد التي نشبع بها والحياة الاجتماعية التي تيسرت لنا ؟ أين دورنا من دور الفسفاط والقاهرة بأفنتها وحدائرها وفساقها ، وبما تجمع فيها من وسائل الراحة والصحة ، وبما أتسحت به من مظاهر الفن والجمال ؟

مظاهر عمارتنا اليوم خليط من مظاهر عمارة الأغبريق والرومان والدول الحديثة اختفت قوميتنا وراء جدرانها وكأن آثارنا أصبحت غريبة في بلادنا . فلا سبيل إلى إحياء شخصياتنا القومية وتميزها إلا بالعودة في ما نقيحه من المباني إلى الطابع القومي، فتكون عمارتنا كما هي في جميع الشعوب الكريمة أثرا بارزا للاعتزاز بالقومية .

أحمد فكري